عقيدة عالم كبير

للسر أرثر كيث

احسُّ في قرارة نفسي بإحجام عن بسط عقيدتي في الانسان والحياة وما بعد الحياة وقد يكون الباعث على ذلك ولادتي في اسكتلندا ونشأتي الدينية بحسب طقوس فريق «البرسبيتريان» من شيعة البروتستانت . وقد يكون لهذا الإحجام صلة بعمري ، فقد تخطيت السنة السادسة والستين وأصبت قسطاً يسيراً من الحكمة العالمية . ولكن الباعث الحقيقي على احجامي انما هو الخشية او الخوف . فانا بحكم الطبع احد الناس . واخشى كما يخشون القطيعة الاجتماعية . ولا ريب في انني اسير في سبيلها يوم افكُّ الختم عن حرم نفسي وأبيح للناس المعتقدات المسيطرة على سلوكي ونظري الى الكون . ولا ريب في ان عملاً كهذا ينطوي على خطر . فهذه المعتقدات موسومة بسمة الشعور العنيف ، لانها اصبحت جزءاً مني ، واننا لنعجز عن المناقشة العلنية فيها من دون ان نتهجم على رجال ونساء نحن في حاجة الى الاحتفاظ بمحبتهم ومداقتهم . لذلك يؤثر معظمنا ان يلزم جانب الصمت في هذه الناحية

ولكنَّ طلب المحرر حملني على ان اخرج على خطتي هذا . وهانذا اكتب وقد وطّنت العزم على ان اسارح نفسي وقرائي معاً . اقول هذا وأنا اعلم ان بعض قرائي قد يتعض لما اقول ، ولكنني ارجو ان يكون اعترافي هذا سبيلاً الى تعزية آخرين

تباين المعتقدات

انا لست وحيداً في هذا العالم . بل ثمة في هذه الدقيقة نحو ١٧٥٠ مليوناً من الناس ، سائرين في طريق الحياة . ومنهم ملايين ، مثلي ، بدأوا الرحلة بارث مجيد من المعتقدات الصالحة ، ولكنهم بعد ان رأوا ما رأوا وسمعوا ما سمعوا وتعلموا ما تعلموا اخذوا يلبذونها معتقداً معتقداً . اما انا فلم يكن الانقلاب الذي وقع لي انقلاباً فجائياً او رؤيا من نوع الرؤيا التي ظهرت لشاول في طرسوس . ولكن توالي اختباراتي وتجاربي اليومية ، اقنعتني رويداً رويداً بأن العقل دون الايمان هو رائدي في الحياة

ولسنا نجد بين الناس اثنين يقطعان رحلة الحياة في طريق واحد . فقد تحدث لاثنين او اكثر منهم الحوادث نفسها ، ولكن اجتماع هذه الحوادث وتفرقها ، يختلفان في حالة كل واحد منهم

عنهما في حالة الآخر . فحياة كل انسان انما هي مغامرة فذة تختلف عن مغامرة الآخر . واذا كانت عقائدنا تختلف باختلاف الطريق التي نقطعها في حداثتنا ، فعقائد الناس يجب ان تختلف اليوم اختلافاً بيّناً او يسيراً ، فلا تماثل منها عقيدتان كل التماثل

وما زال الانسان مطبوعاً بطابع السؤال والبحث ، فمن المتعذّر ، ان نصيب اتفاقاً تاماً في العقائد . وبقدر ما نختلف سبلنا في الحياة تختلف عقائدنا كذلك . ومعظم الناس مقضيٌّ عليهِ بأن يسير في السبيل الممهدة امامهُ . وهم في الغالب لا يملكون من الفراغ او الرغبة ما يمكنهم من دراسة ما يعرض لهم من ضروب الاختيار وتمثيلها . وقليل من الناس من يتاح لهُ ان يختار طريقهُ ويخططها

لا ريب في ان الكنيسة تستميل الى ناحيتها عقول الاحداث الجادّة التواقة الى الكشف عن اسرار الكون والحياة . فهي تمهد لهم الطريق الفذّة الى الحقائق الازلية ، او تبدو كأنها تمهد لهم تلك الطريق . وقد يتاح للكاهن ان يستخلص افضل ما للفكر الانساني عن طرائق الله . بل هو يستطيع ان يتبين في رعيته الطرق التي يسلكها الناس الى الله ، فيقتنع ان قلوب الناس تنطوي على رغبة ملحة في الوصول الى عقيدة راسخة

وقد مضت قرون على الكنيسة وهي تستميل الناس اليها من هذه الناحية . ولكن العلم اخذ ينافسها في ذلك في العصر الحديث ، حتى ليدهش الباحث اذ يرى كثرة الشبان الذين يقفون حياتهم على طلب المعرفة وتوسيع نطاقها . وقد مضوا في كل سبيل يرودون ويستطلعون وعادوا بحصاد غني من الحقائق . ونحن لا يسعنا ان نغضي عن حصادهم هذا لانهم لا يستطيعون ان يتبينوا اسرار الكون والخلق من دون ان يبدعوا نظماً فلسفيةً لتعليل ما شاهدوا وحققوا . ومما لا ريب فيهِ ان التحوُّل في نظر الرجال والنساء الذين ساروا في هذه السبل الجديدة اعظم من التحوُّل الذي أتى على غيرهم ، وهم لذلك لا يستطيعون ان يتمسكوا بالصور الفلسفية القديمة الخاصة بالمادة والعقل

وهذا القول يصدق بوجهٍ خاص على رجال مثلي قضوا الشطر الاكبر من حياتهم في دراسة المادة الحية ، وبوجهٍ خاص اذا كانت تلك المادة مفرغة في قالب الجسم البشري

وقد اتاحت لي الطريق التي سلكتها فرصاً قلّما تتاح لغيري . فقد قادتني الى حيث تمكنت من فحص المكتشفات الخطيرة المرتبطة بنشأة الانسان ومكنتني من دراسة احدث واتمّ ما عرف عن جسم الانسان ودماغهِ . وحقي الوحيد في ان اعرض فلسفتي الخاصة للقراء ، تأتي على ما اصبتهُ من الخبرة في هذا السبيل الذي سلكتهُ

ولكن قبل ان ابدأ اعتراضي ، اودُّ ان اشير الى مسألة اخرى على سبيل التمهيد . فقد قلت اننا لسنا نجدُ اثنين من ملايين المواليد ، يقطعان رحلة الحياة في طريق واحدة . ومما لا ينازع فيهِ كذلك اننا لسنا نجد اثنين يستهلان رحلة الحياة بزادٍ واحد من قوى الجسد والعقل . فعلى كلّ وجهٍ سمة شخصية خاصة ، عند انبثاقهِ من الرحم . وكل طفل حين يهلُّ على الارض يهلُّ ببصمةٍ على انامله خاصةٍ بهِ دون

غيره . وما يصدق على وجوه المواليد وبصمات اناملهم يصدق على ادمغتهم كذلك . ففي الدماغ ١٨٠٠٠ مليون خلية عصبية دقيقة لا ترى الا بالمكرسكوب . وهذه الخلايا مقسمة طوائف كل طائفة منها متصلة بالطوائف الاخرى ، وخطوط الاتصال بينها تزري باكبر لوحة تليفون واكثرها تعقيداً . فنسبة تجد بين هذه الخلايا العصبية خلية واحدة منعزلة عن الاخرى . وجميعها يشترك في تناول الرسائل التي تنهال على الدماغ عن طريق العيون والآذان والاصابع والاقدام وغيرها من اعضاء الجسم

هذا السيل المتدفق من الرسائل يبدأ عند الولادة ولا يقف حتى الموت وهو اساس اختبارنا فاذا تفهمنا هذه الصورة لبناء الدماغ وصلته بخبرة الانسان وتجاربه ، سهل علينا ان نفهم كيف ان هذه الصورة الجديدة تؤثر في تغيير معتقداتنا او في بعضها على الاقل

هل الدماغ مزدوج التركيب ؟

عُني المشتغلون بالمباحث الطبية عناية خاصة بدماغ الانسان . فوجدوا تركيبهُ معقداً كل التعقيد وطرق تأديته لعمله مبهمة يصعب الكشف عنها . ومع ذلك ثبتت لهم حقيقة عامة ثبوت الشمس في رائعة النهار هي ان تعقيد تركيب الدماغ ومقدرتهُ على تأدية عمله يسيران جنباً الى جنب. فالعقل لهُ اساس مادي . راقب دماغ الطفل من ولادته الى المراهقة تر دماغهُ يكبر حجماً ويزداد تركيبهُ تعقيداً وانهُ كلما نما كذلك اتسع نطاق عمله. فاذا اصيب الدماغ في مرتبة من مراتب النمو بعلة اوقفتهُ عن النمو فلت مقدرة صاحبه العقلية حيث هي لا تنمو ولا ترتقي . كذلك ترى ان مرضاً من الامراض اذا اصاب هذا الجانب من الدماغ او ذاك عطل الملكة العقلية التي مركزها في ذلك الجانب المريض . فالتهاب الدماغ السحائي اذا اصاب دماغ طالب في المدرسة اوقف نموهُ العقلي وترك في خلقه اثراً باقياً هو دائماً اثر سيء ولن يكون اثراً صالحاً قط . فانتظام العقل لا يمكن ان يتم الا اذا كان الدماغ صحيحاً في بنائه سليماً من الامراض والآفات . وفي امكان الاطباء ان يخدّروا الدماغ فيضعفوا عمل بعض اجزائه فتضعف الملكات المتصلة بها وان يحقنوا بعض الاجزاء الاخرى بمواد مختلفة فيغيروا بذلك عقل الرجل وتصرفهُ . وبكلام آخر ان الدماغ آلة حية تحرق الوقود وتحول القوة التي تنجم عن ذلك الى شعور وفكر وذاكرة وغيرها من الملكات العقلية والنفسية . فاذا امسكنا عن الدماغ مصادر الوقود الذي يحرقهُ — اي الاكسجين — وقف الدماغ عن العمل كما تخمد النار اذا حُبس عنها الهواء او نفد الوقود . ولذلك لا يرى المشتغلون بالمباحث الطبية سبيلاً الى الاعتقاد بان الدماغ عضو مزدوج التركيب مؤلف من مادة وروح . لان كل حقيقة تمكنوا من امتحانها واثباتها تحتم عليهم القول بان العقل والروح انما هما مظهران من مظاهر دماغ حي كما ان اللهب مظهر من مظاهر شمعة تحترق . فاذا اصاب الدماغ والشمعة ما حلّهما الى عناصرها المستقلة بطل وجود العقل واللهب وجوداً مستقلاً . ومهما تعارض هذا الرأي مع التقاليد والآراء المنقولة فرجال

الطب لا يستطيعون ان يروا غير هذا الرأي اذا صدقوا ما تثبتهُ حواسهم . ولولا ذلك لما كان في امكانهم ان يشخصوا الامراض العقلية وغيرها ويصفوا لها طرق العلاج والوقاية . فالروح اذاً في نظر رجال الطب تقيم في الدماغ والجهاز العصبي المعقد التركيب ولا يمكن فصلها عنهما . على ان هذا الرأي لا يسلّم بهِ طائفة من رجال العلم الذين اشتهروا ببراعتهم في الكشف عن اسرار المادة وبنائها وعلاقتها بالطاقة . وفي مقدمة هؤلاء السر اوليفر لدج . ان نظره الى دماغ الانسان قائم على الاعتقاد بأن الدماغ اداة مادية لوحدة غير مادية يسميها الروح والروح في رأيهِ متميزة عن الدماغ تميُّز الموسيقي عن البيانو الذي يعزف عليهِ . وهو مسوق الى هذا الاعتقاد لانهُ يستطيع ان يفسر بهِ اكثر المظاهر التي يعتقد في صحتها اصحاب المذهب الروحاني . فالروحانيون يعتقدون ان العقل او الروح يجيء من الفضاء فيأخذ بتلابيب البروتوبلاسمة الحية ويجعل منها جسداً حيًّا ثم يستعمل هذا الجسد أداة لمظاهره ثم لا يلبث ان يتجرد عن هيكلهِ المادي ويرجع الى الفضاء . والفرق بين الرأيين ان البيولوجي العصري يقدم الجسم والشمعة على الروح واللهب والروحاني يعكس الأمر ويقدم الروح على الجسد واللهب على الشمعة

خلود الحياة

أنا أرى ان الحياة نسيج خالد . وأرى اني والسر اوليفر لدج وجميع المخلوقات البشرية على الارض لسنا سوى دقائق لا تُرى لنسغرها في هذا النسيج الفسيح . فنسيج الحياة الذي نراه الآن على نول الزمان انما هو القطعة الاخيرة من ثوب سابق متصل الاجزاء بدأ في جوف الزمان المتغلغل في القدم وهو كذلك القطعة الاولى في ثوب لاحق متصل بهِ لا نستطيع ان نرى نهايتهُ . اقول هذا ولا اجهل ان علماء الهيئة الذي درسوا الشمس وعمرها يرون انهُ لا بدَّ ان يحلَّ زمن تصبح فيهِ هذه الارض داراً غير صالحة للاحياء امثالنا . ولما كانت هذه الضربة لن تحلَّ فيها قبل انقضاء ملايين من السنين او عشرات ومئات الملايين فيمكن القول بان خلود الحياة الانسانية عليها امر مقرَّر بالنسبة الينا . انا اؤمن بالخلود . والسر اوليفر لدج يؤمن بهِ كذلك . ولكني اؤمن بخلود الحياة الانسانية على المنوال الذي قدمت . فاذا خلدنا فانما نحن نخلد في ابنائنا واحفادنا . وكل انسان يولد وفي جسمهِ عناصر الخلود . ولكن السر اوليفر لدج يؤمن بخلود الشخصية المستقلة

على ان السر اوليفر لدج قائد مجرَّب لهُ مقام رفيع بين جنود العلم الطبيعي الذين يحاولون ان يسلبوا الطبيعة اسرارها ويسيطروا على قواها . وانا لست سوى جندي في جيش الاطباء الذي يحاول ان يسيطر على الامراض ويديل من سطوتها على حياة الانسان . ونحن نرى اننا لن نفلح في حربنا مع الجراثيم الا اذا درسنا الحياة واساليبها في اعضاء الانسان على اختلافها ودقائقهُ واحدة منها . ولا ريب في انهُ فرض واجب علينا ان نستعين باخواننا علماء الطبيعة وما كشفوا عنهُ من اسرار

المادة وتركيبها وخصوصاً بناء المادة الحية. الا اننا نرى ان تأليف مجلس علمي للنظر في حياة الانسان لا بدَّ انهُ يحتوي بين اعضائهِ على الاطباء ولا بدَّ ان يكون لهؤلاء كلمة مسموعة فيهِ

طبيعة الموت

اذا فحص طبيب قلب مريض ووجد انهُ وقف عن الضرب وان رئتيه توقفتا عن التنفس حتم بان الرجل قد مات . ولكن الحقيقة انهُ لم يمت في نظر العلم . لانهُ اذا استطاع الطبيب ان يبني اداة تمكنهُ من حقن شرايين هذا الرجل الميت بدم جديد فيهِ عنصر الاكسجين عاد الى الرجل رشدهُ وذاكرتهُ وعقلهُ وتمتع بهما ما زال هذا الدم الجديد يحقن في عروقهِ . ولكن اذا وقف الدم بما فيه من الاكسجين عن الدوران عشر دقائق انتقلت ملايين الخلايا التي يتألف منها الجسم الى هوَّة الموت السحيقة من غير امل في العودة منها

والقلب يبقى حيًّا بعد موت الدماغ — قد يبقى حيًّا ساعتين او اربع ساعات او اكثر من ذلك حتى بعد صدور الشهادة الشرعية بحصول الوفاة . وقد يؤخذ قلب من جسد ميت وتعاد اليهِ الحياة بوسائل صناعية فيعود ينبض كانهُ في صدر صاحبهِ الحيّ . كذلك تبقى اغشية الشرايين تبدي دلائل الحياة اربعين ساعة بعد موت صاحبها . والجسم الحيّ مكوَّن كما لا يخفى من الوف الخلايا الدقيقة التي لا ترى الا بالمكرسكوب وقد ازال علماء الطب بعض هذه الخلايا من فتى ميت وحفظوها حية في معاملهم الطبية زمناً كان فيهِ الجسم الذي اخذت منهُ قد عاد الى التراب

فالموت لا يحدث في لحظة كخطف البرق . والجسم الميت يموت تدريجاً كما يفنى شعب من الجوع في مدينة محصورة ، الضعاف يموتون اولاً ثم يموت الباقون بحسب ضعفهم وقوتهم على مقاومة الجوع . فاذا كان سبب الموت ، كما يعتقد السر الفرنسي ، خروج الروح من الجسد وجب ان يكون هذا الخروج في لحظة واحدة اي من جميع اعضاء الجسد وخلاياه في آن واحد . ولكنهُ كما رأينا فعل تدريجي . واذا كان اساس الحياة في الانسان روحاً غير مادي فكيف يحتاج الى اشياء مادية كالهواء والماء والغذاء لحفظ الحياة . اذا دخل روح الى بيتي في الليل ووجدت في الصباح انهُ أكل طعامي وكرع خمري وسرق نقودي حكمت ان هذا الروح مادي لا اثيري . هذا هو المبدأ الذي يبني عليهِ البيولوجي نظره الى روح الجسد البشري . انهُ يرى انهُ يحتاج الى غذاء مادي وانهُ يجب ان ينفق المادة ويحول القوة وان الوعي والشعور والذاكرة والارادة وكل المدارك التي تجعلها لفظة العقل تزول من الدماغ الحي اذا حبسنا عنهُ الاكسجين . فالحياة كما نعرفها لها أساس مادي والعالم الفسيولوجي لا يستطيع ان يتصور كيف يمكن وجود الحياة منفصلة عن المادة . فحياة العقل وخلوده لا يمكن ان ينمّا من غير حياة الجسد وخلوده

الجسد الميت شمعة قد طفئت . فاذا نعرف عن الشمعة المشتعلة المضيئة — ماذا نعرف عن الجسم منيراً بشعلة الحياة ؟ اننا نعلم كيف تنار شمعة الجسم الحي اذ يلزم لها نور شمعة اخرى حتى

تغيرها وقد تقدمنا كثيراً في هذا الميدان من ميادين العلم . لقد مرَّ قرن واحد فقط منذ رأى الانسان للمرة الاولى في التاريخ دقيقة من البروتوبلاسمة تدعى البيضة التي منها تنشأ كل حياة انسانية ونحن نستطيع الآن ان نتتبع كل درجة من الدرجات التي تمرُّ بها هذه البيضة حتى تصير رجلاً او امرأة . فقد تتبعنا في رحم المرأة كلَّ تغير يطرأ على جسم الجنين من بنائه البسيط بعيد التلقيح الى هذه الاجسام التي تحير اللب في تعقيد بنائها وغموض الاسرار التي تحتجب وراء افعالها ووظائفها. كلٌّ منا يبدأ خلية من البروتوبلاسمة لا تكاد ترى بالمكرسكوب لصغرها . وكلٌّ منا ينتهي بجسم مؤلف من الوف الوف الخلايا . وفي استطاعتنا ان نرى جماهير من هذه الخلايا مسوقة لتقوم بعمل الجهاز العصبي وجماهير اخرى بنات عم لها تبنى منها الآلات العضلية الحية واخرى تبنى منها العظام واخرى يتركب منها الدم او الجلد او غير ذلك من انسجة الجسم واعضائه . كذلك نستطيع ان نراقب نشوء عضوي الحس الدقيقين في تركيبهما ووظيفتهما أعني العين والاذن . حتى في ساعة الموت تكون بعض الخلايا قد اشرفت على الولادة والبعض قد اشرف على الموت والخلايا الاخرى فيما بين هذين الطرفين في مراحل مختلفة بين الولادة والموت . فكأن جسد الانسان يولد ويموت كل يوم . وفي كل ساعة نرى روح الحياة او قوة الحياة تتحوَّل اعمالاً صالحة او طالحة

فكيف نستطيع ان نعلل هذه التغيرات العجيبة التي تطرأ على خلية واحدة من المادة الحية فتحولها الى رجل عاقل؟ اصحيح ما يذهب اليه السر الفرنسيس من ان وحدة ثيرية ، او روحاً بشرية دخلت هذه الذرة من البروتوبلاسمة وحركت دقائقها وجعلتها تمرُّ في ادوار النمو والنشوء المعقدة لكي تبتني لها داراً ارضية زائلة . انها لا تكاد تشرع في تكوين هذه الدار حتى تدخل عناصر الانحلال تفسد عليها عملها عاجلاً او آجلاً . كلاَّ انهُ لأسهل ولأقرب للعقل ان نعلل الحقائق المعروفة عن الحياة بانها افعال وتفاعلات حيوية مادية بدلاً من ان ننسبها الى فعل وحدة خفية غير مادية كالتي يذهب اليها السر الفرنسيس

لماذا يبدأ كل من البشر حياتهُ في رحم امرأة ؟ إذا صح ما يذهب اليه السر الفرنسيس من ان الجسم ليس سوى دار للروح فاننا لا نستطيع ان نعلل التلقيح وتكوين الجنين في رحم الانثى . ولكن اذا قبلنا مذهب النشوء — والادلة على وجوب قبوله كثيرة — استطعنا ان نعلل ابتداء حياة كل انسان في خلية الانثى بعد اتحادها بخلية الذكر وكيف ينمو جسم الجنين ويتطور لان مذهب النشوء يقتفي خطوات الانسان منذ ظهور الحياة على الارض . وتاريخ الانسان الجنيني يلخص هذا التاريخ المديد . فالبيولوجيون يحسبون نوع الانسان جزءاً من نسيج الحياة الذي تفلتت اوائله في جوف الزمان. فما يصحُّ على الانسان يجب ان ينطبق على الاحياء الاخرى التي تتكوَّن منها اجزاء هذا النسيج فاذا قلنا بروح غير مادي لتعليل حياة الانسان لم نستطع ان نمسك عن تطبيق هذا التعليل على حياة الاميبا وهي ادنى الاحياء وابسطها تركيباً